خطبة الكتاب

قال المؤلف -رحمه الله-تعالى:

(الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، وأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا).

(الشرح)

هذه خطبة الكتاب، وقد جرت عادة المصنفين أن يستهلوا مكتوباتهم بالبسملة، أو الحمدلة، أو بهما معًا، والبسملة آكد في المكاتيب، والحمدلة آكد في الخطب.

والصحيح، من أقوال أهل العلم، أنها آية مستقلة تُفتتح بها السور، وهي بعض آية من سورة النمل؛ فجميع سور القرآن مفتتحة بالبسملة إلا سورة واحدة، هي سورة براءة؛ قال بعض الناس: لأنها سورة نزلت بالعذاب، وفيها آية السيف، والبسملة فيها ذكر الرحمة، فلا يتناسب هذا مع هذا، لكن هذا ليس بصواب، فهناك سور من القرآن تضمنت ذكر العذاب، كسورة محمد: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [محمد: ٤]، ومع ذلك فهي مفتتحة بالبسملة، وإنما

كان سبب عدم إثبات البسملة في سورة براءة أن الصحابة، رضوان الله عليهم ، لما كتبوا المصحف، شكُّوا: هل سورة براءة تتمة لسورة الأنفال، أم هي سورة مستقلة؟ فإن سورة الأنفال قصيرة مقارنةً بالسبع الطوال؛ فصار عندهم تردد: أهي سورة مستقلة، أم أنها وسورة التوبة سورة واحدة؟ فاكتفوا بوضع خط بين السورتين، ولم يثبتوا البسملة.

وليست البسملة، على الصحيح، من السبع المثاني؛ لدليلين:

الدليل الأول: قال الله تعالى، في الحديث القدسي: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي)[١]، فابتدأ بالحمدلة، ولم يبتدأ بالبسملة، و"الصلاة": اسم من أسماء الفاتحة.

الدليل الثاني: قوله، في هذا الحديث السابق: (فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)[٢]، فدل على أن هذه الآية الرابعة هي المنصَفة؛ قبلها ثلاث، وبعدها ثلاث.

فالابتداء بالبسملة، في المكاتيب والخطب، مشروع لأمرين:

الأمر الأول: اقتداء بكتاب الله العزيز.

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

[٢] أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

الأمر الثاني: اقتداء بهدي المرسلين؛ فقد كتب سليمان، عليه السلام، إلى ملكة سبأ: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: ٣٠]، وكذا نبينا، صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، كان يصدر مكاتبيه ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فحينما أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَ اللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)[١]، ولما كتب إلى ملوك الأرض كتب: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ)[٢].

وأما ما روي من الأحاديث من البداءة بالبسملة، كحديث: (كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْطَعُ)[٣]، أو(أجذم)، أو (أبتر)، وفي بعضها (لَا يُبْدَأُ فيه بحمد الله) ([٤])، وهو أصح من لفظة البسملة، فكلها ضعيفة،

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٢٧٣١).

[٢] أخرجه البخاري: رقم (٧)، ومسلم: رقم (١٧٧٣).

[٣] أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: رقم (١٢١٠).

[٤]) أخرجه أبو داود: رقم (٤٨٤٠)، والنسائي، في السنن الكبرى: رقم (١٠٢٥٥)، وابن ماجه: رقم (١٨٩٤) باختلاف يسير، وأحمد: رقم (٨٧١٢)، بنحوه. وذكره النووي في الأذكار: (١٤٩)، وقال: حديث حسن روي موصولًا ومرسلًا، ورواية الموصول جيدة الإسناد.

ويغنينا عنها ما تقدم من كتاب الله، وهدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فهما كافيان للأخذ بهذه السنة، وعليه عمل المسلمين إلى يومنا هذا.

وأما البداءة بالحمدلة في الخطب، فشواهده كثيرة، في الصحاح والسنن، وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون، والصحابة، والتابعون.

قوله: {بسم}: جار ومجرور، والجار والمجرور لا بد له من متعلق، وهو: فعل محذوف مقدر بما يناسب المقام؛ فإذا كان الإنسان يريد أن يأكل، فتقديره: بسم الله آكل، وإذا أراد أن يشرب، فتقديره: بسم الله أشرب، وإذا أراد أن يدخل بيته، فتقديره: بسم الله أدخل، وهكذا، وفي هذا المقام ينبغي أن يكون التقدير: بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، وبالنسبة للقارئ: بسم الله أقرأ.

قوله: (اسم): الاسم هو ما عيّن مسماه، وهو مأخوذ إما من السّمو، وإما من السّمة.

قوله : {الله}: علم على ذاته سبحانه، وهو أعرف المعارف، وإليه مرجع الأسماء الحسنى، حتى إن الله، سبحانه وتعالى يُحيل جميع الأسماء الحسنى إليه؛ اقرأوا إن شئتم: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر: ٢٢- ٢٤]، ولهذا قال بعض العلماء: (الله) هو الاسم الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؛ لأنه يدل على جميع صفات الكمال لله تعالى.

وأصل كلمة: الله: إله على وزن فِعال، قاله الزجاج[١]، فخُففت فصارت الله، والإله هو المألوه، فهو فِعَال، ويراد به مفعول، وهذا كثير في اللغة، كقولنا: كتاب، ويراد به مكتوب، وفراش، ويراد به مفروش، وغراس، ويراد به مغروس، وليس المراد به "آلِه" بكسر اللام، على وزن فاعل، كما ادعى بعض المتكلمين؛ بل "إله" بمعنى مألوه، أي معبود، وهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيمًا؛ فهو مشتق من أَلَه، يألَه، أُلُوهة، من الوله، وهو الانجذاب، والتعلق بالمألوه، والحقيق بغاية المحبة والتعظيم هو الله، سبحانه، دون ما سواه.

قوله: {الرحمن الرحيم}: سمى نفسه باسمين كريمين، لطيفين، رقيقين، من أسمائه الحسنى؛ الرحمن الرحيم، وكلاهما دال على اتصافه تعالى بصفة الرحمة.

والفرق بين "الرحمن" "والرحيم" من وجهين:

الوجه الأول: أن الرحمن يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا ذاتيًا، والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا، بمعنى أن الله، سبحانه وتعالى، من صفاته الذاتية؛ اللازمة له، سبحانه، التي لا تنفك عنه، صفة الرحمة، وأما الرحيم فإنه يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا، بمعنى أنه يوصلها إلى المرحومين؛ فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة، ورحمة الله واسعة؛ قال تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً} [غافر: ٧]، وقال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦].

---

[١] انظر: تفسير أسماء الله الحسنى: (ص:٢٥).

الوجه الثاني: أن الرحمن يدل على الرحمة العامة، التي تشمل كل شيء، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة، التي تكون للمؤمنين؛ بدليل قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: ٤٣].

قوله: {الحمد لله}: الحمد فعل يُنبئ عن تعظيم المحمود، لاتصافه بصفات الكمال، ونعوت الجلال.

والفرق بين الحمد والمدح: أن الحمد مقرون بتعظيم ومحبة، والمدح: لا يلزم منه ذلك؛ فقد تمدح شخصًا لا تحبه، فتصف شخصًا من الكفار بالشجاعة، والقوة، والكرم، والإقدام، وأنت لا تحبه؛ فلا يكون ذلك حمدًا، بل مدحًا.

فإذا تكرر الحمد صار ثناءً، ولهذا قال الله، عز وجل، في الحديث القدسي: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي)[1]، فلما تكرر الحمد صار ثناءً، والثناء مأخوذ من ثني الثوب، وهو رد بعضه على بعض.

وقدم لفظ (الحمد) على لفظ الجلالة (الله) ليدل على الاستغراق؛ يعني: الحمد كله مستحق لله، فهو أهل الثناء، والحمد، والمجد، كأنما تقول: أثبت لله جميع صفات الكمال، ونعوت الجلال.

وينبغي التفطن لحكمة اقتران الأذكار الكريمة بعضها ببعض؛ (سبحان الله)، و (الحمد لله)، و (الله أكبر)؛ فمعنى التسبيح التنزيه، أي تنزيه الله تعالى عن

---

[1] أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

ثلاثة أشياء: النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين؛ لكن لا يتم الأمر إلا بالحمد، وهو وصف الرب بصفات الكمال، ونعوت الجلال؛ ولهذا قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (الْحَمْدُ لِلّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1]. وإتباع ذلك بالتكبير لكي يبين أن اتصاف الله، عز وجل، بصفات الكمال، ونعوت الجلال، على وجه لا يشاركه فيه أحد، لا يدانيه فيه أحد؛ فيحصل بذلك التوحيد التام في أسماء الله وصفاته؛ فينبغي استحضار هذه المعاني، في أدبار الصلوات، فتعتقد تنزيه الله، أولًا، ثم تثبت له صفات الكمال، ثانيًا، ثم تفرده بها، على وجه لا يماثله فيه أحد.

وما أكثر الحمد في القرآن، فقد جاء لفظ (الحمد لله)، ثلاثًا وعشرين مرة، والسور المبدوءة بالحمد في القرآن خمس، وهي: (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر).

قوله: {الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}: الرسول: هو محمد، صلى الله عليه وسلم، فليس اسم جنس، بل اسم عين على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فإنه قد قال في كتابه: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]؛ **فمضمون الرسالة المحمدية أمران:**

الأول: الهدى: وهو العلم النافع.

الثاني: دين الحق: وهو العمل الصالح.

---

[1] أخرجه مسلم: رقم (٢٢٣).

فالدين إما أمر علمي، وإما أمر عملي، فمن تأمل شريعة الإسلام وجد أنها مكونة من شرائع ظاهرة، وهي الإسلام، ومن اعتقادات باطنة، وهي الإيمان؛ فالله تعالى قد بعث نبيه محمدًا، صلى الله عليه وسلم، بالأمرين معًا.

قوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا}: هذا اقتباس من قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً} [الفتح: ٢٨].

قوله: {لِيُظْهِرَهُ}: أي يعليه، **والظهور نوعان:** ظهور بالحجة والبرهان، وظهور بالسيف والسنان، وقد وقع الأمران:

الأمر الأول: ظهور هذا الدين على سائر الملل والأديان بالحجة والبرهان؛ فهذا لا يتخلف أبدًا، فمن قارن دين الإسلام بالأديان المحرفة، ناهيك عن الأديان الوثنية، والأفكار الفلسفية، وجد البون الشاسع، والفرق العظيم، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً} [النساء: ٨٢]؛ فدين الإسلام ظاهر بالحجة والبرهان، وكل من أراد أن يعيب الإسلام، أو ينال من كتابه، أو من نبيه، باء بالخسران؛ ولهذا صمد الإسلام هذه القرون المتطاولة، على كثرة أعدائه، وترصدهم له، وبقي شامخًا، عزيزًا، مُقنعًا؛ لا يتمكن أحد من خصومه، من الملاحدة، والمستشرقين، أن ينالوا منه، وإن أجلبوا بخيلهم ورجلهم، فإنهم يرتدون على أدبارهم خاسئين.

الأمر الثاني: الظهور بالسيف والسنان، وقد وقع، بحمد الله، فيما مضى من القرون، فإن نبينا، صلى الله عليه وسلم، قال : {إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ

مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنّ أُمّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا}[١]، وجرى في المائة الأولى، من تاريخ الإسلام، أن طبق الإسلام المعمورة، وقد توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مطلع السنة الحادية عشرة من الهجرة، وقال في آخر عمره، وقد خرج إلى أصحابه: (أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ)[٢]، ومراده أن أهل ذلك القرن يفنون، وهم خير القرون؛ قرن الصحابة، رضوان الله عليهم، فما مضت مائة سنة إلا وقد بلغ الإسلام أطراف الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا، وأسوار القسطنطينية، وبلاد الغال (فرنسا) شمالًا، وأواسط أفريقيا جنوبًا، والقرن الأول، أفضل قرون هذه الأمة، وهو الحقيق بلقب "القرن الذهبي"، لا زمن المأمون، كما يدعي العصرانيون، العقلانيون، فصدق الله عبده، ونصر جنده، وأظهر دينه على الدين كله؛ قال الشاعر:

كيف لا أذكر أجـــداداً لهـــم ... فتكة الإعصار عند الغضب
وجـــواداً قبّـــلت حـــافـــره ... لجّة البحر تجـــــــاه المـــغـــرب
وملوك الصين تُهدي ترْبها تُربها ... لفَتَانا في صحـــــاف الذهـــــب[٣]

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٢٨٨٩).

[٢] أخرجه البخاري: رقم (١١٦)، ومسلم: رقم (٢٥٣٧).

[٣] للشاعر هاشم الرفاعي، من قصيدته (دين وعروبة)، التي يقول في مطلعها: (أيُّها السائرُ بينَ الغَيهَبِ ** عاثرُ الخَطوِ جليّ التّعبِ).

يُشير إلى قتيبة بن مسلم الباهلي-رحمه الله-، حين أقسم أن لا يرجع من فتوحاته في المشرق حتى يطأ بلاد الصين بقدميه، وتبذل له ملوكها الجزية، فما كان منهم إلا أن وضعوا تراب الصين على صحاف الذهب، وبعثوا به إليه ليفي بنذره.

وإلى موسى بن نصير-رحمه الله-حين مضى في فتوحاته حتى خاض بجواده ضفة الأطلسي، في أقصى بلاد المغرب، وقال: والله لو أعلم أن خلفك أرضاً يُعبد فيها غير الله لخضتك! وجاز المسلمون إلى الأندلس، التي تسمى الآن إسبانيا والبرتغال، وتخطوا جبال البرانس، ودخلوا بلاد الغال، التي تسمى الآن: فرنسا، ومكثوا فيها نحو خمسين سنة، حتى وقعت معركة بلاط الشهداء[1]، بقيادة عبد الرحمن الغافقي-رحمه الله-، واستشهد فيها، وكانت سنة مائة وأربعة عشرة للهجرة، فانحسر المد الإسلامي عن بلاد أوروبا، وقد كانت خطة المسلمين أن يجتاحوا أوروبا من غربها حتى يبلغوا القسطنطينية في شرقها، ثم إن الله تعالى أعاد الكرّة للمسلمين، في عهد العثمانيين، حتى اكتسحوا أوروبا الشرقية بأكملها، ولا يزال الإسلام، بحمد الله، يمتد، إلى يومنا هذا، فلا يوجد دين على وجه الأرض ينخرط الناس فيه، ويعتنقونه طواعية، كما الإسلام! وهي حقيقة مذهلة، ومدوية، لكن تتواطأ الآلة الإعلامية الغربية على إخفائها وكتمها، خشية أن تتنامى بشكل أكبر؛ فإن الذين يعتنقون الإسلام يومياً في أركان الأرض كثير، مع قلة الدعم، والموارد، لأنه دين الله الموافق للفطرة، والعقل، فتحقق

[1] ويعرفها الغرب باسم (تور بواتييه).

بذلك موعود الله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

ومما يروى في التاريخ أن أمير المؤمنين، هارون الرشيد، رحمه الله، رأى سحابة تعبر في السماء، فقال لها: أمطري، أو لا تمطري، أمطري أنى شئت فسيأتيني خراجك، وهذا يدل على سعة رقعة البلاد المفتوحة، وأن هذه السحابة إن أمطرت في بلاد المسلمين، فستأتيه زكاة غلتها، وإن أمطرت في بلاد الكفار، فسيبذلون الجزية.